

استشراف المستقبل في رواية "اعترافات أسكرام" لعزالدين ميهوبي

أ.عبد الله بوقصة / جامعة الشلف

abh-mosta@live.fr

Résumé

La prévision de l'avenir est associée surtout à la science-fiction à travers les récits et les romans exploités en cinéma pour réaliser l'excitation, l'anticipation et le plaisir, mais la prévision de l'avenir peut, par excellence, être objet d'une œuvre romanesque dans de nombreux domaines de la vie.

Ce présent article essaye d'explorer la notion de la prévision de l'avenir dans les écrits de Azzedine Mihoubi à qui, peut être cette notion est considérée comme une expérience distincte.

ملخص:

ارتبط استشراف المستقبل بالخيال العلمي وما أُنجز في إطاره من قصص وروايات استغللتها السينما من أجل الإثارة والتزقّب والمتعة، غير أنه يمكن أن يكون مادة روائية في مجالات حياتية أخرى كثيرة. ونحاول هذه الدراسة أن نقف على هذه الظاهرة عند عز الدين ميهوبي فيما يمكن اعتباره تجربة مميزة في هذا المجال.

OOO

تمهيد:

أضحى استشراف المستقبل اليوم من أهم الدعائم الإستراتيجية للمؤسسات الكبرى، والدول المتقدمة التي ما فتئت تضع خططها المستقبلية بناءً على قراءة لتطور أحوال الناس، والاهتمام بهذا الأمر يزداد يوماً بعد يوم.. حيث إنّ هذه الفعاليات الاستشرافية هي الحدّ الفاصل بين الازدهار والاندثار. والتاريخ حافل بالأمثلة عن المؤسسات التي اندثرت لعدم اهتمامها بدراسة المستقبل، أو لقراءتها الخاطئة له، وفشلها في اتّخاذ المواقف المطلوبة التي تمكنها من الاستعداد للتحديات المستقبلية.

لعلّ هذا دأب الأديب الجزائري "عز الدين ميهوبي" الذي أصدر روايته "اعترافات أسكرام"¹ التي تضمّ سبعة فصول هي: "تين آمود/عين

الزانة/الشاعر والجدران/الفجيعة على أستار الكعبة/تورابورا/قيس الماء الأبيض/رماد النبي الأخير"
فما خصوصيات هذه الباكورة الروائية من النواحي الجمالية والدلالية والمقصدية ؟

تتناول رواية "اعترافات أسكرام" بالسرد سلسلة اعترافات ضمن فضاء متخيل متمثل في مدينة "تمراست" عام 2040م، وقد بنيت فيها ناطحات السحاب، فازدهر عمرانها، وصارت تضاهي كبريات مدن العالم. وهو عمل أدبي يحاول سارده استشراف المستقبل والتنبؤ بأفاق الغد المشرق حيننا والخالك أحياننا.

وقد تغيب عن أبصار الساسة وبصائرهم بؤادر الاهتزازات الكبرى التي تعزّي المجتمعات، لكنّ بصيرة الأدب والفن لا تفلتها. لذا يحظى الأدباء بنظرة متميزة إلى آفاق الغد. وبالذات أولئك الأدباء الذين يلتزمون بفلسفة قضايا الأمم ومستقبلها، بصفتهم أصحاب رؤى ثاقبة لا تقف عند حدود الواقع المعيش، وإنّما يسعون جاهدين إلى استشراف المستقبل، فيشيرون إلى مواطن الخطر المحدق بأنهم، ليس على سبيل التوقع أو التشاؤم، بل من منظور أنّ الحاضر عادة هو الذي يبذر بذور الآفاق المستقبلية. فالواقع الآن كثيرا ما يحمل ملامح المستقبل المنتظر..

غير أنّ هذا الاستشراف المستقبلي يحتاج إلى مزيد من التأمل والترويّ وقدح الذهن، والتراث الفكري العالمي والعربي على سواء يزخران بالقيم الحضارية الرائعة التي تعدّ إرهاصات لقراءة المستقبل.

الأدب الاستشرافي بين التأريخ والرصد

ينصرف مفهوم الاستشراف لغةً إلى العلوّ والارتفاع والمجد والحسب، فيقال: استشرفت الشيء، إذا رفعت بصرك تنظر إليه وبسطت كفّك فوق حاجبك، كالذي يستظلّ من الشمس.² أمّا اصطلاحاً فإنه عبارة عن التطلع إلى المستقبل من خلال دراسة الماضي وفهم الحاضر، والسنن الفاعلة فيهما..أو هو اجتهاد علمي منظم يرمي إلى صياغة مجموعة من التنبؤات المشروطة التي تشمل المعالم الأساسية لأوضاع مجتمع ما، أو مجموعة مجتمعات عبر مدّة زمنية محددة.

ففي عام 1503م أصدر شاعر فرنسي يدعى "نوستزاداموس"³ نبوءاته الشعرية ضمن ديوانه المعنون بـ"القرون" فتنبأ فيه بظهور كلّ من "نابليون"

و"هتلر"، وإلقاء القنبلة الذرية في "هيروشيما" و"نكازاكي"، ومصرع "روبرت كينيدي"... وغيرها من النبوءات التي ما فتئت تتحقق تباعا. وفي عام 1898م صدرت في بريطانيا رواية بعنوان "غرق الباخرة تيتان" لكاتب مغمور اسمه "مورجان روبرتسون" تحكي حادثة تعرض باخرة ركاب اسمها "تيتان" للغرق، حيث أفلعت عبر المحيط الأطلسي من ميناء "ساوتمنتون" الإنجليزي إلى ميناء "نيويورك"، واصطدمت بجبل جليدي فغرق ركابها. وقد وصفت هذه الرواية بدقة ما عاناه ركاب "تيتانيك" بعد أربع عشرة سنة.

ويعتقد الشاعر المكسيكي "أكتافيوباث" في هذا الصدد أن الشعراء هم محللو الأسرار الخفية، وكاشفو المجهول انطلاقا من المعلوم. كما أنهم تلك الكائنات التي يسمح لها بنقل غير المحتمل، وتعديل فوضى الأشياء. أي أن الشاعر ليس له أن يتغنى بالوردة بل عليه أن يجعلها تتفتّح عبر أبيات قصائده.

وهذا ما يتجسّد عند الشاعر الإنجليزي الكبير "كولريدج" الذي يقول:

"مَاذَا لَوْ أَخَذْتُكَ سِنَّةً تُشْبِهُ النَّوْمَ؟
مَاذَا لَوْ حَلَمْتَ أَنَّكَ تَرَقَى فِي السَّمَاءِ
إِلَى مَكَانٍ عَالٍ بِهِ جَنَّةٌ مِنْ زُهُورٍ؟
مَاذَا لَوْ قَطَفْتَ مِنْهَا زَهْرَةً رَائِعَةً؟
ثُمَّ اسْتَيْقَظْتَ مِنْ نَوْمِكَ فِي الصَّبَاحِ
لِتَجِدَ الزَّهْرَةَ بَيْنَ أَصَابِعِكَ."⁴

ولا ينحصر هذا الأمر في صدق ما يقول الأدباء اليوم ولا أمس، بل في قراءة ما سيعرفه الناس مستقبلا، وهو أمر قريب من المستحيل، وإن تجسّد في موقف الشاعرة العربية "ليلى الأخيلية" الذي توارثناه عن السلف، إذ وقفت على قبر حبيبها "توبة الحميري"، وهي في هودجها، وقالت لمن في القبر: "السلام عليك يا توبة". وحيثما لم يردّ عليها أحد. قالت: إنك لم تكذب طيلة حياتك يا توبة إلا في قولك:

"وَلَوْ أَنَّ لَيْلَى الْأَخِيلِيَّةَ سَلِمَاتٌ *** عَلَيَّ فِي قَبْرِي وَدُونِي صَفَائِحُ
لَسَلِمَتْ تَسْلِيمَ الْبَشَاشَةِ أَوْ رُقَا *** لَهَا طَائِرٌ مِنْ جَانِبِ الْقَبْرِ صَائِحُ."⁵

وحدث للتو أن فرت بومة من جنبات القبر، فتعثرّ الجمل بالهودج، فسقطت "ليلى الأخيلية" على القبر لتلتحق بـ"توبة"، الذي تحققت نبوءته الشعرية.

إن الرغبة في معرفة المستقبل حاجة فطرية وحيثما وجدت الحاجة فلا بد من وسائل لسدها بغض النظر عن دقة النتائج أو صحتها. ومحاولة معرفة المستقبل لم تكن حكراً على العرب الأوائل، فقد ظلت الأجيال ليومنا هذا تعتمد النظر في النجوم واستخدام "قراءة الطالع". ومن مشهور الأخبار التي حفظها التاريخ والأدب قصة موقعة "عمورية" المشهورة التي حدثت في زمن الخليفة المعتصم بالله العباسي وبدأت بحادثة اعتداء على امرأة مسلمة في تلك المنطقة من بلاد الترك التي نادى بصوت عال "وامعتصماه"، فتناقلت الألسن هذه الاستغاثة حتى وصلت إلى الخليفة المعتصم الذي أقسم بالله أن يفتح المدينة استجابة لتلك المرأة، لكن المنجمون نصحوه بأن ينتظر لأوان نضج الفاكهة لأنه الوقت الوحيد الذي دلت عليه النجوم، فأبى الاستماع إليهم وتوجه إلى "عمورية" متوكلاً على الله وفتحها. وقد أرّخ لهذه الموقعة المشهورة الشاعر العربي الكبير "أبو تمام" بقصيدته الرائعة التي ردّ فيها على أدعياء معرفة المستقبل من خلال قراءة النجوم، وهذه بعض أبياتها:

"السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ
فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّيْبِ
بِيضُ الصَّفَائِحِ لَا سُودُ الصَّحَائِفِ
فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ
وَالْعِلْمُ فِي أَشْهُبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ
بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ، لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ"⁶

ولأنّ الرواية كجنس أدبي راق هي الواقع والمتخيل معا، إذ يتماهى فيها الواقع بالخيال أحيانا فيغدو أكثر خيالية منه. كما أنّ السارد ذاته يؤمن بكونه يتناول عالماً قائماً على التحولات من خلال روايته، ومن هنا كانت الرواية خطاباً متحولاً بامتياز.

فهل ثمة نص روائي جزائري معاصر يمكن إدراجه ضمن الأدب الاستشرافي كونه يسلط الأضواء على التحولات الاجتماعية والثقافية الراهنة التي تستدعي بعض التنبؤات؟

و إلى أي مدى يتمكن هذا النص أو ذاك من قراءة الماضي والحاضر وفق ما يوحي باستشراف المستقبل.

قراءة استشرافية في رواية "اعترافات أسكرام"

كلما قرأنا نصا قراءة جديدة عثرنا على معان مختلفة عن السابقة، وحتى منتج هذا النص لا يعي سبب إنتاجه، ولا يفكر فيما يكون عليه نصه بعد سنة أو عشر سنين. أمّا التحولات المتعددة فهي مسألة بديهية، إذ لا نتصور الطفل الذي كان قبل عقود من الزمن يجعل من علبة طماطم فارغة وسلك معدني مركبة ذات قيمة جمالية تجلب له شيئا من السعادة مثل الطفل في الوقت الراهن الذي يترجّح بمبتكرات مستوردة من وراء البحار. فالذوق يتغيّر مثلما تتغيّر المفاهيم والقيم. وما نراه اليوم ثابتا سيكون بعد أعوام متحوّلا، لأنّ العقل يبدع بلا حدود.

لعلّ هذا حال الأديب الجزائري "عز الدين ميهوبي" الذي تعاطى الشعر فأبدع دواوين متميزة، ناهيك عن أعمال درامية أخرى كتبها للمسرح والتلفزيون. ولما كانت الرواية هي ديوان العالم الحالي، لم يغرد خارج السرب فأصدر روايته "اعترافات أسكرام" سنة 2009م.

ولكنّ الرواية في مجملها مزج بين التاريخ والعلم والأسطورة والشعر والدين والسياسة والنبوءة في نوع من التماهي بين كافّة هذه الأجناس الأدبية والمجالات العلمية من أجل إنتاج عمل أدبي يمثّل روح العولمة.

هذا ويبدو السارد متفائلا بمستقبل الجزائر. وقد أطلق على مدينته الفاضلة "تمراست" اسم "تام سيتي" وأعاد هيكلة عمرانها، وربطها بثقافة الميترزو، وأبقى على تراث التوارق متجذرا في معالمه وإيماءاته، إنّه حلم مشروع لأننا عايشنا تجارب مدن لم تكن موجودة قبل ثلاثين عاما، ولكنها أصبحت اليوم متغيرا ثقافيا وحضاريا مؤثرا. ننظر اليوم لـ"دي" كفعل تجاري وسياحي، أو "الدوحة" كفعل سياسي ورياضي، لا ريب في أنهما قطبان ساحران جذابان. فلا غرابة في أن تكون "تمراست" كذلك، فهي بوابة الصحاري الشاسعة، فيكفيها نيل قسط من التنمية لتكون وجهة مثلى للسواح الأجانب والأشقاء العرب على حدّ سواء.

فهذه ليست نبوءات بقدر ما هي قراءات استشرافية مؤسسة على عناصر من التاريخ، والاجتماع، والسياسة، والاقتصاد. ومما تجدر الإشارة إليه في هذه العجالة أنّ بعض هذه الرؤى الاستشرافية المبتوثة بين طيات رواية "اعترافات أسكرام" تحققت..مثل: نيل الرئيس الأمريكي "باراك أوباما" جائزة نوبل للسلام، كما في المقتطف الآتي: "يحتفظ أوباما بقدر من الطيبة، لا غرابة أن يمنح جائزة نوبل للسلام اعترافا بما قدّمه من خدمة للسلام والأمن في

العالم.. كانت له يد بيضاء في سيرلانكا، والصومال، وفلسطين، والتحسيس بخطر السلاح النووي، والتسامح الديني، وجعل التكنولوجيا في خدمة الإنسانية⁷ وكذلك التنبؤ بنهاية أسامة بن لادن إذ تشير الرواية إلى أن أحد أتباعه يحتفظ بوصية لزعيم القاعدة يفتحها بعد وفاته فيقرأ ما يلي: "اعلموا أنني قد أموت ولا يعرف لي قبر"⁸

البنية الفنية الجمالية

لعلّ أول مؤشر من مؤشرات الذاكرة الاجتماعية للرواية هو مؤشر العنونة سواء من خلال العنوان الخارجي الرئيس أو العناوين الداخلية المدرجة تحته. وفي هذا السياق يستوقفنا العنوان الخارجي الرئيس كعتبة نواة متمثلة في علامات مكبرة لفظيا وداليا للعنوان اللغوي "اعترافات أسكرام". فالحّد الأول منه "اعتراف Confession" هو إقرار بفعل ما وعدم إبقائه في طبيّ النسيان، سواء كان هذا الفعل ذنبا يستوجب التكفير أو خطأ يتطلب التصحيح. أمّا الحّد الثاني "أسكرام" فهو مكان الاعتراف، وليس هو المعنى بهذا الاعتراف، إذ يقول الناص في هذا المضمرة: "في ربيع 2037 اختار رجل أعمال ألماني يدعى أدولف هوسمان بناء فندق قريب من قمة أسكرام الجبلية، وأطلق عليه اسم (أسكرام بالاس). واختار له هندسة معمارية مشابهة لقمة الجبل الأسطوري، فرأى فيه الناس تحفة معمارية، منحت الأهقار بعدا سياحيا آخر"⁹

وإذا كانت وظيفة التعيين désignation الخاصة بالفضاء المكاني للرواية قد تحققت في لفظ العبارة في عتبة "اعترافات أسكرام"، فإنّ تحديد الملفوظ فيها يتمّ بشكل انزياحي غير معتاد، ذلك أنّ المعتاد في سلوك لفظ المسند "اعترافات" يحيل على ملفوظ الإنسان في مقام الارتياح والمساءلة والإجبار، كأن نقول مثلا "اعترافات آثم أو مذنب أو متهم...أخ. إلّا أنّ تعيين هذا المسند بواسطة المسند إليه المكاني "أسكرام" يعدّل أفق توقع المتلقي، ويضعه بغتة في سياق وظيفة الإغراء séductive.

وهكذا تمّت عملية شخصنة فندق "أسكرام بالاس" الذي تحوّل من معلم إشهاري سياحي لاستقطاب مواسم الهجرة نحو الجنوب حيث الدفء والصفاء إلى علامة مفسّرة لأفق النص. بما أنّ الروائي اتخذ من هذا الفضاء الكوني الباعث على استثارة الذاكرة النائمة في أعماق الوعي كرسي اعتراف، أو منصة مساءلة، مساءلة الجنوب المتهمّ الضحية للشمال المتمركز المستبدّ.

ولتوسيع فضاءات الذاكرة الكونية المرنة الباحثة عن متنفس يتيح لها مزية المسألة الرمزية، وإمكانية القصص المعنوي على الأقل، تأتي العتبات الداخلية منفصلة ومتصلة في آن واحد: 1-تين أمود 2-عين الزانة 3-الشاعر والجدران 4-الفجيرة على أستار الكعبة 5-تورابورا 6-قديس الماء الأبدى 7-رماد النبي الأخير.

وما عدا العنوان الأخير (رماد النبي الأخير) الذي لا يعدو أن يكون مجرد إضاءة جانبية مختزلة لاحتراق شخصية "أودلف هوسمان". ذلك الألمانى الذي أقام فندق "أسكرام" في "منراست" تكرىما لنبيه الملهم "شارل دي فوكو" دفين هذه المدينة الحلم، ليلقى مصرعه بها هو أيضا. وكلّ العتبات الأخرى تتكامل في عدة علامات تصبّ كلّها في إشباع وعي المتلقي بتفريغ الذاكرة الكونية في هذا العمل السردى.

ولعلّ أكثر هذه العتبات كثيفا وأشملها استشرافا هي العتبة الافتتاحية للرواية "تين أمود"، تلك الشخصية الأنثوية التارقية التي جلبت كلّ الانتباه، واستعصت على الجميع محتلة مكانة أسطورية رامية إلى الجزائر العميقة التي لا تلين لمن تسوّل له نفسه جسّ نبضها.

ثمّ عتبة "عين الزانة" الذاكرة المكانية النابضة بالحياة التي تعدّ شهادة إثبات تاريخية وجغرافية فاضحة للذاكرة الإجرامية الفرنسية السوداء في الجزائر. فعتبة "الشاعر والجدران" التي تتمخض عنها إشكالية الحرية بين الإلزام والالتزام، وبين الضرورة الإيديولوجية والضرورة الفنية. وعتبة "الفجيرة على أستار الكعبة" التي تتجسّد في الصراع الإيديولوجي والتنازع بين المادية الغربية والروحانية الشرقية. وعتبة "تورابورا" القائمة على الإشهار التراجيدي المؤسس لفسيفساء الظاهرة الكونية للإرهاب بكافة أشكاله وألوانه.

وأخيرا تأتي أدقّ عتبة وهي "قديس الماء الأبدى" التي تحتل نهاية رومانسية استشرافية تتوقّع بديلا كونيا يتمثل في محو ذاكرة الصراع والظلم والموت، والتأسيس لذاكرة الصفاء والعدل والحياة. كما للقارئ أن يستحضر في طيات هذه العتبة منصوص الآية الكريمة "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"¹⁰.

إنّ هذه الديباجة الكونية اتخذت من وعي الشخصيات البؤرية مدارا للقول السردى في هذه الرواية. إلى حدّ يجعل المتلقي يتصوّر أن مكون

الشخصية الروائية هو المدرك السردى الأساس والوحيد في الرواية. إلا أننا حين نعن النظر في كيفية تناسل محكي الكلام انطلاقاً من الذاكرة المتدافعة لهذه الشخصيات، نجد أنّ سقف مساهمتها يتراجع لبقائها حبيسة مادتها المرجعية الخام. ويبدو أنّ ذلك يعود إلى اقتناع الروائي بزوال الحدود بين المؤلف المعتاد والغرائي المجهول في سياق هيمنة النمط السردى لمحكي الكلام.

ويبرز في محكي الكلام كذلك ملمح شعرنة الكون السردى، من خلال افتتاحية الرواية عامة والحيز المتعلّق بشخصية "تين أمود" الدرامية خاصة. ذلك الحيز الذي يبدو متخماً بنصوص شعرية متنوعة، تتحوّل فيها بؤر اهتمام المتلقي من التعاطي السردى الديناميكي إلى التعاطي الشعري السكوني.¹¹

هذا وتبدو البنية الإطارية لمحمل النص الروائي افتراضية استشرافية هادئة، يمثّل الناص فيها راوياً والقارئ مروياً له والرواية اعترافاً عاماً تتخلله اعترافات خاصة، يقف الكاتب في حقبة زمنية ما يتأمل التاريخ، ويرصد الواقع ويستشرف المستقبل، يللم شتات الوقائع والأمثلة ليجعلها تحتمل، ثمّ يسكبها حبراً في بوتقة أوراقه، شاهداً على عصر العولمة. تتمثّل خصوصية هذا النص الروائي أساساً في قيام الشخصيات بمهام لا تحيد عنها. على الرغم من فضاءاتها المكانية الرحبة، وإطاراتها الزمانية المرنة، وحقولها الموضوعاتية المتنوعة، وهي تتناوب في أدوارها على طابور كراسي الاعتراف، والبوح، والمكاشفة، والمساءلة.

هوامش

¹ عز الدين ميهوبي، اعترافات أسكرام، منشورات البيت، الجزائر، 2009.

² ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، مج4، ص2243.

³ ميشال دي نوسترام، نبوءات نوستراداموس "القرون"، ترجمة جميل حمادة، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1996.

⁴ سليمان الفليح، استشراف المستقبل، مجلة العربي، ع:463، / يونيو 1997، ص50.

⁵ توبة بن الحمير، الديوان، تحقيق خليل إبراهيم العطية، دار صادر، بيروت، 1998، ص47، 48.

⁶ الشنتمرى، شرح ديوان أبي تمام، تحقيق إبراهيم نادن، منشورات وزارة الأوقاف، بيروت، ج1، ص171.

⁷ اعترافات أسكرام، ص 09.

⁸ المصدر نفسه، ص 524.

⁹ المصدر نفسه، ص 33.

¹⁰ سورة الأنبياء، الآية 30 .

¹¹ اعترافات أسكرام، ص 51 ، 52.